

الوعي القومي بين الموضوعية والذاتية

طرحت الأحداث وما تزال مشكلة الوعي السياسي بشكل حاد إذ ان ميوعة الانتماء القومي استغلت بشكل فاضح لتفجير الوضع ابان الازمة اللبنانية كلما اريد ذلك. فالخلاف على الهوية القومية ما يزال يشكل العقبة الكبرى في التماس طريق التقدم. وإذا كان تكريس الوعي القومي مهمة تاريخية وشاقة فالجميع من القائلين بالقومية على اختلاف أنواعهم، حتى الأميين من برودونيين وماركسيين، يعتبرونه شرطا أساسيا وضروريا للنهضة.

فالمساجلات بين ماركس وانجلز من جهة والافرشيين ثوار قومونة باريس من جهة اخرى تدور حول خطر تحلل وحدة الأمة. ويعرض لينين في كتابه «الدولة والثورة» لهذا الخلاف فيسير على خطى استاذيه ليدعمهما باعتبار نظرة البرودونيين نحو الدولة ما بعد الثورة العمالية، تحمل في طياتها خطر تفكك الوحدة الوطنية كما يؤكد مؤسس الدولة السوفياتية في منشوره الشهير «العزة القومية للروس العظام» فيفتخر بقوميته ويقول «العزة القومية هل هي غريبة عنا؟ بالتأكيد لا. اننا نحب لغتنا ونحب وطننا. لهذا نعمل ... لإعلاء شأن جماهير الشغيلة اي تسعة أعشار سكان وطننا: ان أشد ما يؤلمنا هو ما يكابده وطننا الرائع الجمال من عنف وتجاوزات ... القياصرة الجزائريين والنبلاء والرأسماليين».

نستنتج من ذلك ان الوعي القومي ضروري في عرف الجميع ومتى تم تكريسه لا يمكن بأي حال من الاحوال العودة عنه. ولكن إذا كان الوعي هو فعل ارادي في لحظة ذاتية، الا ان تحقيقه وتموضعه يتطلب الانطلاق من ظروف موضوعية تؤمن له العنصر العفوي ليعود فيثور هذه الظروف. في الواقع على الساحة ثلاث دعوات قومية: القومية السورية، القومية العربية، والقومية الأقلية. والسؤال المطروح: اين هذه الدعوات من الوضعية والذاتية اي من العفوية والارادية؟

سعادة القدوة

نشا الحزب السوري القومي الاجتماعي في اوائل الثلاثينات في وقت كان الجميع يتحدث عن الوحدة السورية رغم واقع التجزئة السياسية المستجد بعد اتفاقية ساكس - بيكو. وكانت الدعوة لهذه الوحدة في تلك المرحلة من البداهة بمكان بحيث بلغت اثرا عميقا في نفوس الأجيال الطالعة، حتى أن بعضهم، بعد فترة من الزمن ومن مواقع المسؤولية الاولى وفي الوقت الذي اصبح فيه القول بهذه الوحدة يعتبر «مشروعا استعماريًا» بقي يتوق اليها، فالرئيس السابق عبد الرحمن عارف يورد في احدى خطبه «ان جميع الموجات البشرية التي تعاقبت وتجمعت فوق هذه البطح تعاونت على اقامة صرح هذه الحضارة التي فيها قدرة العقل الناضج على تكوين القادة والصناع الماهرين ... وقد نشر الاكاديون حضارتهم في الشرق الأوسط ووجدوا هذه البلاد من الخليج العربي الى سواحل البحر الأبيض المتوسط فكانت بلاد الرافدين وسوريا وفلسطين دولة واحدة». (من خطاب افتتاح المتحف العراقي).

أن المناخ الذي أحاط بنشأة الحزب كان مشيعا بضرورة الوحدة السورية فأدباء النهضة كانوا يتحدثون عن الامة السورية (انظر كتاب «نحن ولبنان»، للأستاذ عبد الله قبرصي). وتجمعات الأعيان والاقطاعيين في دمشق كأحزاب الشعب والكتلة الوطنية والاتحاد السوري كانت تقول بهذه الوحدة. وكان الهاشميون في بغداد بعد فشل الملك فيصل الاول في تنصيب نفسه ملكا على سورية كلها، ما فتأوا يعملون لوحدة الهلال الخصيب. لكن سعادة انتزع فكرة الوحدة السورية من مجالها الأدبي من اعيانها وملوكها اي من برجها العاجي وصاغ لها نظرية متكاملة في القومية ليضعها في خدمة الشعب، وأنشأ تنظيما شعبيا ثوريا، فكان الحزب الذي جسد وعي الأمة لذاتها وكان سابقا بوضع الفكر في خدمة الناس. ووضع المؤسس برنامجا للحكم مستوحى من الظروف المحيطة به وتمثل هذا البرنامج بما عرف بالمبادئ الاصلاحية. في هذا المجال تكمن عبقرية سعادته وليس في انه رفع هذا الشعار او ذاك. وقد اندفع

الشباب الثوري من عكا حتى اللاذقية ومن بيروت حتى دير الزور من جميع الطوائف تحت راية الحزب لتحقيق المهمة التاريخية.

نستنتج من ذلك، انه في تصور مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي لم تكن الوحدة هي الهدف الوحيد والنهائي، والا لوضع نفسه في تصرف احدى القوى العاملة في تلك الفترة وتجنب المصاعب والموت المبكر. والكل يعرف رأي مؤلف كتاب «الاسلام في رسالتيه» في أولئك الذين هم مثال رشيد سليم الخوري يضعون أنفسهم في خدمة الرجعية من امثال شكيب ارسلان الودودي، توسلا للمغانم الفردية والانية. بيد انه من الواضح أن الحزب بعد غياب مؤسسه دخل في مرحلة هذه الصلابة المدهشة لما انبثقت من تجارب الحزب المريرة غاب فيها التجدد فابتعد عن المواطنين في الخمسينات واضطرت قيادته الى القيام بأعمال ارتجالية، كانت حصيلتها تفهقرا يدل على مستوى الفهم العقدي آنذاك.

في القومية العربية

اما القومية العربية فلها منظرون كثر الا ان اهم ظواهرها من الناحية العملية تكمن في حزب البعث العربي الاشتراكي وفي الناصرية. وفي رأينا ان حزب البعث يمثل المظهر المتقدم للقومية العربية فهو حزب تقدمي وجريء للعلمانية التي يدعو اليها الا ان ميشيل عفلق في كتابه «في سبيل البعث» يصدم القارئ المنتمي لجبلنا الذي وعى الاحداث السياسية في مرحلة تميزت بالدور الرئيسي لحزب البعث العربي الاشتراكي وغياب الحزب القومي الاجتماعي وتبعية الحزب الشيوعي. اذ لدى قراءتنا لكتاب عفلق يبدو لنا للوهلة الأولى اننا امام كاتب رومنسي يتحدث عن «القدر» و «الحب» و «القدر المحبب» والدين والروح دون رابط فكري واضح. ويكتنف الغموض تحديده ومفاهيمه. ونضطر للملزمة الأفكار من هنا وهناك لنمسك ببنيته الفكرية. وعفلق هنا نقيض سعادة صاحب المنطق الصارم والمنهج العلمي الواضح والبنيان الفكري المتكامل في النظرية القومية. وكان من المفترض من مفكر اجتماعي وسياسي بوزن عفلق ان يتبع أسلوبا عمليا وموضوعيا في تحديد مبادئ الامة والقومية هي بأشد الحاجة الى التدقيق والتحليل الصريح. ولكننا مع بعض اللهاث وراء المقاطع والالفاظ أمكننا تحديد فكر عفلق من العفوية والارادية والنتائج السياسية لتمظهر هذا الفكر.

تقتزن الدعوة العقلية للوحدة العربية بالمفهوم «الانقلابي». «فكرة الوحدة العربية هي الفكرة الانقلابية بالمعنى الصحيح، اي بعدم ترك الزمن يسيطر على مقدرات الأمور. فالانقلاب معناه أن حالة الأمة بلغت حدا من السوء أصبح معه تركها للظروف والتطور امرا يعرضها للهلاك وانه لا بد من ظهور الحركة التي تقوم بتبديل الاوضاع. حركة تأخذ خطأ معاكسا لخط الترددي الذي تسير فيه الامة فالتطور يعني التأخر، مما يعني أن تقوم الحركة على الارادة في قلب الاوضاع وعلى كل فرد بعثي أن يمثل الصورة عن حياة امته عندما يتحقق البعث، فعليه بإرادته أن يتخطى الأوضاع القائمة ليصبح صورة امته في حياتها السلمية المقبلة. ان هذه الشخصية الارادية هي في صميم صلب الدعوة البعثية التي تلتقي هنا مع الدعوة القومية الاجتماعية. ولكن عفلق يشكو في احدى مقالاته من أنه «كان في حركة البعث شيء كثير من العفوية والذاتية». في الواقع أن هذا التعبير يبدو للوهلة الأولى غامضا ومتناقضا. ولكننا إذا أكملنا قراءة هذا الفصل المعنون «بالوضعية والبعث» والذي يظهر فيه بكل اسف النقص الفاضح في ثقافة عفلق الاجتماعية وهو يتحدث عن الماركسية ازاء هذا الموضوع، لوجدنا أن العفوية هنا تعني الارتجال في العمل السياسي وليست العفوية المنبثقة من الوضعية، وان الذي يشكو منه عفلق هو الذاتية في حركته خصوصا عندما يقابلها بالحركة الشيوعية ويأسف لان هذه الأخيرة عاشت وانتشرت ويلاحظ «انه بقدر ما تكون الحركة بعيدة عن العنصر الشخصي بقدر ما تكون قابلة للانتشار». فالشيوعية من منظور عفلق تعتمد على الوضعية الصرفة وتتخلى عن العنصر الذاتي فحركتها اذن حركة آلية حتمية ليس للإرادة فيها مكان فهي تنتشر لأنها تجذب تلقائيا العمال والكادحين. انه من السهل أن نتصور ثورة لينين والماركسيين الذين اختلفوا معه أو خالفوه من كوتسكي حتى غارودي مروراً بغرامشي ولوكاش وستالين على هذا الاتهام ونحيل القارئ على كتاب لينين «ما العمل» في الفصل الثاني المعنون «عفوية الجماهير والوعي الاشتراكي الديمقراطي» حيث يكيل التهم للذين لا يرون في الماركسية الا العنصر الموضوعي بحيث أن عفوية العمال الناتجة عن أوضاعهم تدفعهم حتميا نحو الثورة مما يلغي بالتالي دور الحزب القائد وتتقوض من أساسها.

أن استطرادنا لهذا الموضوع هو لتبيان الحاح عفلق على ان حركته ارادية وتقف في الخندق المواجه للشيوعية الحتمية في نظره. وعلى كل حال فالبعث في النهاية ارادة الحياة. وقد كان اول الحزبيين من الطلاب وخاصة طلاب

عقل الذي كان بتدريسه للتاريخ يطرح التساؤلات حول العرب وينتقد أوضاعهم المتردية، ولم يكن المنتمون الى الحزب في بداية الامر من نوعية واحدة او طائفة معينة. فالأغلبية كانت من الريفيين والاقليات، هذه النواة التقدمية سينفصل عنها عقل او هي ستفصله لان اتجاه الفكر العقلي في تمظهره مفسخ للمجتمع فهو يؤكد «بان القومية العربية ... هي واقع بديهي يفرض نفسه دون حاجة الى نقاش او نضال ... ولهذا لا موجب لان نقاش في اننا عرب او لا ... ان الفكرة العربية هي بديهية خالدة وهي قدر محبب لأنه حب قبل كل شيء». ثم يكتب في مكان اخر «اما اليوم فان المحرك الأساسي للعرب في هذه المرحلة من حياتهم هو القومية التي هي كلمة السر التي تستطيع وحدها ان تحرك أوتار قلوبهم وتنفذ الى أعماق نفوسهم وتتجاوز مع حاجاتهم الحقيقية الاصلية». ان عقل عندما يتقدم بهذا الشكل من المواطنين لا نستبعد ان يقف ازاء الاكراد والاشوريون والسريان والبربر وأبناء جنوب السودان حتى لا نذكر غيرهم اذ جميعهم قاموا بحركات عسكرية طاردة وانفصالية، لا نستبعد أن يقف هؤلاء ليؤكدوا في مواجهة عقل بأنهم هم ايضا لا يناقشون فيما إذا كانوا عربا ام لا وان القومية التي تحرك اوتار قلوبهم هي قومية من نوع اخر فالاعتماد على تحريك اوتار القلوب سيجد أمامه بالضرورة في مجتمعنا قلوبا عديدة لها اوتار من المستحيل أن تتناغم بل ستتنافر بكل تأكيد. فعقل هنا يستحث وضعية عرقية وبالتالي عفوية معينة تنبثق عنها، لا بد لها من أن تثير عفويات عرقية اخرى في اتجاهات معاكسة. فالإرادة تتراجع عمليا امام العفوية في الفكر العقلي.

اما من الناحية الدينية، فيظهر عقل بمظهر متقدم على العروبيين القدامى امثال عبود والافغاني فالدولة البعثية هي التي تتيح لجميع المواطنين أن يعملوا متعاونين على تحقيق امكانيات الأمة العربية في مجال الروح والمادة وذلك بتحقيق إمكانيات كل فرد من أفرادها دونما عائق مصطنع. هذه الدولة تقوم على أساس اجتماعي هو القومية و اساس اخلاقي هو الحرية. «دولة هي نقيض الاحاد والفساد وكل ما هو سلبي وهدام و علمانية الدولة بهذا المعنى ليست الا انقادا للروح من شوائب الضغط والقسر ووضع العراقيل المصطنعة امام يقظة الروح والخلق ... فالعلمانية التي نطلبها للدولة هي التي بتحريرها الدين من ظروف السياسة وملابساتها تسمح له ان ينطلق في مجاله الحر في حياة الافراد». ان عقل يفصله الدين عن السياسة لا بد أن يصل الدولة العلمانية ومع أن هذا الموقف أتى متأخرا خمسة عشر عاما عن موقف سعادة الذي ما عرف المواردية والالتواء في هذا الموضوع الشائك، الا انه لا بد من أن نقر بان موقف حزب البعث العربي الاشتراكي يتميز هنا بالجرأة والاقدام اذ أن حلم العروبة الدينية ما يزال يراود الكثيرين. ولا بد أيضا هنا من الإشادة بمحاولة حزب البعث لتخطي عبود والافغاني عله يقضي على هاجس العروبية المحمدية. فالبعث من مبادئه انه حركة قومية تتوجه الى العرب كافة على اختلاف أديانهم ومذاهبهم تقدر حرية الاعتقاد وتنظر الى الأديان نظرة مساواة في التقديس والاحترام.

لكن عقل يتخلى عن هذا المبدأ الاساسي في البعث، بسهولة، فهو يتميز بفكر سياسي تقوئيه على ما يبدو الظروف الموضوعية كعجينة طيبة، ويصبح التراجع بالمعتقدات والنظريات لديه أمرا مستعصيا، فهو دائم اللهاث وراء وضعية معينة يستحث العفوية المنبثقة عنها، فهو يعلن أن «في الاسلام ناحية قومية لها مكانتها الخطيرة في تكوين التاريخ العربي والقومية العربية ويعتبر هذه الناحية ذات صلة وثيقة بترات العرب الروحي وبمميزات عبقريتهم».

وكتابات عقل تزخر بتمجيد الدين الاسلامي، وهو امر مشكور عليه، ولكننا لا نجد لأي دين آخر كالمسيحية واليهودية هذه الأهمية في فكره. فبعد أن يعلمن الدولة يعود ليؤكد بانه لن يفهمه «الا من يفهم حياة محمد من الداخل» وان الايمان بالله هو الدافع الأول على الاصلاح الاجتماعي «ففي الاسلام كان الايمان بالله واحد هو الأصل وعنه تفرعت كل الاصلاحات» ويعتبر ان في حياة العرب القومية «حادث خطير هو الاسلام» ويدعو لان يكون «كل العرب اليوم محمدا» ويعترف في النهاية بان القومية العربية هي الاسلام فيعلن صريحا «ان العروبة جسم روحه الاسلام» وينذر العالم «بان قوة الاسلام التي كانت في الماضي معبرة عن قوة العرب قد بعثت بمظهر جديد هو القومية العربية». فعقل اذن واضح كل الوضوح في معادلته: القومية العربية تساوي الدين المحمدي.

ان حركة البعث تتوجه للعرب كافة على اختلاف اديانهم ومذاهبهم، ولكن عقل سينزع هذه الدعوة عن هذه الحركة بالضرورة، لان الذين سيستجيبون لدعوته هم من فئة معينة تدغدغ اقواله احلامهم وتحرك اوتار قلوبهم ولا شك بان عبد الناصر قد سبق عقل فخط هذا الأخير سيصل به حتما الى تسليم راية القومية العفوية لأحد الملهمين او الأنبياء حيث وصل معه تحريك الجماهير بعفويتها الى حدها الاقصى، فقادها في كثير من الاحيان الى نكبات أضعفتها، وافقدتها قدرة التطلع الى محاولات الآخرين.

على هذا نتساءل اين الارادة الانقلابية في فكر عفلق؟ هل الانقلابي يلجا الى اللعب على اوتار العاطفة؟ ان المنطق الانقلابي يثير العجب، فهو يبدو وكأنه أحد خطباء الجمعة: «أن الله قادر أن ينزل على نبيه في يوم واحد واقتضى أكثر من عشرين عاما وهو قادر أن ينصر دينه ويهدي اليه كل الناس ولكن ذلك اقتضى أكثر من عشرين عاما وهو قادر أن يظهر الاسلام قبل ظهوره بعد ظهوره بعشرات القرون وفي اية امة من خلقه ولكنه أظهره في وقت معين وفي حينه واختار لذلك الامة العربية وبطلها الرسول العربي. وفي كل ذلك حكمة فالحقيقة الباهرة التي لا ينكرها الا المكابر هي اذن ان اختيار العرب لتبليغ رسالة الاسلام كان بسبب مزايا وفضائل اساسية فيهم». هل هذا هو المنطق الذي يدفع الناس الى «الإرادة» في مغالبة الواقع؟

لقد سقط عفلق في عبده والافغاني. وشكلت الناصرية العفوية في اوجها بحرا على مستوى القاعدة يصب فيه نهر عفلق. لقد بدأ اراديا وانتهى يستحث الاستجابات العفوية. وقد أصبح الجميع يدرك بان الاستجابة العفوية لفئة معينة في مجتمعنا في اتجاه دعوة ما، تدفع بفئات اخرى لاستجابات معاكسة. ومثل حزب الكتائب اللبنانية أفضل تعبير، اذ نشأ هذا الحزب كرد فعل على الحزب السوري القومي الاجتماعي ولكنه في المرحلة هذه لم يستطع تجذير قواعده في جبل لبنان ولم يستطع أن يلعب دورا سياسيا على شيء من الأهمية الا عندما غزت الناصرية العفوية بعض الفئات وتصدى لها حزب الكتائب بنفس الاسلوب.

بين سعادة و عفلق

ان سعادة الذي كان يرى في التفسخ الروحي السبب الرئيسي للويلات التي تحل بشعبنا، رأى في العروبة الدينية امكانية «تزيد الشفاق بين الأقطار العربية وتمنع الفكر القومي من النمو وفتح الافاق للأمم العربية اللسان وهي نكبة لجميع الأقطار العربية على السواء».

ان اكثرية القائلين بالعروبية هم من المحمديين الذين حلموا وتاقوا الى الدولة الدينية والخلافة والعصر الذهبي وقد جعلهم هذا أسهل انقيادا للدعوة لدولة دينية منهم الى دولة قومية وسعادة يقود صرح هذه الدولة وهو منسجم مع نظرتة القومية وبنيناه الفكري. وإذا كان عفلق يرى في المحمدية روح القومية التي يدعو اليها فسعادة في كتابه «الاسلام في رسالتيه» يبرهن وحدة الرسالتين: المسيحية والمحمدية في بناء التراث الروحي للمجتمع السوري.

ومما تجدر ملاحظته في هذا المجال أن نظرية سعادة في القومية السورية وموقفها من الدين تعد ظاهرة فذة في العالم العربي لجذريتها وقوة تماسكها وخاصة لما خلفته في نفوس السوريين القوميين الاجتماعيين الملتزمين سياسيا من وعي واسلوب جديد في التعامل بين افراد الامة الواحدة والنظر الى الأمور كما لم تفعله عقيدة من قبلها. ونجاح نظرة سعادة هنا لا يقاس نظريا فقط أي من حيث ان موقفه من الدين هو حلقة من نظام فكري متكامل او من حيث انه جديد اتى به بل يقاس خاصة بالنسبة لما حققته في الواقع المدهش حقا اذ نلمس قوة العقيدة في نفوس القوميين من خلال اقتلاعهم لجذور الرجعية الدينية. وكأن القوميين الاجتماعيين هم الذين تتمثل بهم انقلابية عفلق. اليس هؤلاء هم «الحقيقة التي تغالب الواقع»؟

في قومية الأقلية

اما قومية الأقلية فابرز مثل عليها في الوقت الراهن هو حزب الكتائب اللبنانية واذا كانت البيئة السورية قد عرفت فيما مضى حركات طاردة – انفصالية كالحركة الاشورية و الكردية و حركتي العلويين و الدروز ابان الانتداب الفرنسي فحزب الكتائب اللبنانية يبقى المظهر المتقدم لهذه الحركات، فهو بطرح منذ سنين موضوع العلمانية كبداية لتطوير الميثاق الوطني والنظام السياسي ويقدم نفسه كحزب لبناني ديمقراطي اجتماعي ولكنه عمليا في تكوينه يعتمد على وضعية طائفية معينة ويستثمر العفوية المقابلة لشارعه بطبيعته يمينيا يوظف قواه الشعبية للدفاع عن النظام القائم الآن هذا النظام هو الأساس للكيان اللبناني الذي يزعم الحزب ان مهمته تقضي بالدفاع عنه، فهو أن يرفض تغيير النظم اللبنانية لأنه يعتقد «بان هذه النظم تتلاءم تماما مع وضع لبنان من جهة تقاليده وتركيبه و تركيبه الطائفي وبانها تشكل ضمانة فعلية لاستقلاله وتوازنه واستقراره السياسي». مما يعني أن القومية اللبنانية التي يدعو لها والوحدة اللبنانية مرهونتان بنظام سياسي معين وبالتالي تصبح الأمة اللبنانية امة ظرفية فاقدة لجذورها التاريخية. اما التناقض الرئيسي الذي يحويه الحزب ويلازم طبيعته يكمن في أن قواه الشعبية لا تتماسك الا في ظل توتر طائفي وهي تندفع للعراك على هذا الأساس فتلاحظ فيما بعد أن الذين يستفيدون من نضالها لا ينتمون جميعهم الى

طائفها بل ينتمون الى طبقة معينة تنتمي عناصرها لطوائف عديدة وتكون بالتالي نتيجة النضال مناقضة للهدف الذي سعت اليه هذه القوى.

ورغم أن بعض منظري حزب الكتائب اللبنانية وهم قليلو العدد ومشهود لهم برداءتهم الفكرية قد حاولوا فيما مضى تخطي الطائفية الى القومية لكنهم وجدوا أنفسهم مجبرين على ممارسة البهلوانية الفكرية اذ ان الازمة اللبنانية كشفت ارتباط الحزب بالوضع الطائفية فاتت تصاريح بيار الجميل ابان الأحداث تسفه يوميا هؤلاء المنظرين المساكين في الفكر وهو يعلن بانه يتألم باسم طائفة واحدة متخليا عن لبنان الامة.

ولا بد من الاشارة مرة أخرى أن حزب الكتائب اللبنانية بقي هامشيا في رده على القومية السورية ولكنه في تصديه للناصرية استمد قوته من استثماره للعروبية العفوية في الشارع المقابل لشارعه، ومع ذلك لم يكن يحصل في ظل نظام انتخابي فصل لصالحه ولصالح الأحزاب والتكتلات المشابهة له من حيث الاتجاه السياسي (وان كانت المضامين متغايرة) الا على ستة نواب ولكنه في حال التآزيم الطائفي ينصب نفسه كقوة أولى في مناطق عديدة من جبل لبنان. فالتأزيم الطائفي شرط وجودي بالنسبة له. أن حزب الكتائب وامثاله هو عمليا الناتج الطبيعي للقومية العربية فهو بحاجة لها فهي المصل الذي يحيا عليه. هذه القومية مهما حاولت التفتن في مظهرها تبقى انتماء عرقيا ومهما حاولت الادعاء بانها تغني الفينيقية والاشورية والسريانية ... الخ فهي عمليا تجد نفسها في مواجهة سافرة معها. انها في جوهرها Restrictive فيعد ان تكون الوحدة هي الهدف تصبح بالنتيجة ضدها وفي رأينا أن سعادة عندما يقول: «نحن حماة الضاد وسيف العروبة وترسها»، يريد اغناء الحضارة العربية وحماية العروبة باقتلاع الجراثيم القاتلة فيها، التي تقضي عليها إذا ما فعلت فعلها. على هذا تصبح قومية سعادة هي المؤهلة لتعطيل الحركات الطاردة وبالتالي قيادة النهضة.

في القومية السورية

شكلت الاحداث جدارا اصطدما به أثناء سيرنا في نومنا فأيقظتنا على هذه القومية وحزبها. ولا بد لنا في معاملتنا أمام هذا الحزب أن نتساءل: كيف يتم نقل وعي القومية السورية من حيز الضرورة الى حيز الممكن؟ الحزب ذات الأمة، اي وعيها، فما هي الأسس التي يجري عليها تموضع هذا الوعي؟ هل سيبقى حزب سعادة كبرموتيبوس مربوطا إلى الصخرة لأنه عارض الألهة، آلهة الرجعية والتفسيخ؟ هل تستمر هذه الألهة في ارسال النور تنهش كبده، حتى وان كان تجدد هذا الكبد - كما تقول الأسطورة -، امر واقع في الحزب؟

ان بعض القوميين، يتصرفون وكأنهم يصرون على المكوث في الذاتية، يعرفلون مسيرة الحزب وابلغ مثال هو هنري حاماتي. يقول في كتابه «جماهير وكوارث»: «من نحن؟ ... نحن بقايا مجموعة بقايا! آشوريون وكلدان وارمن وفاطميون وروم وسريان وعباسيون وامويون واسماعيليون وشركس وبقايا اترك وفرس». ثم يتقدم منهم ويطرح عليهم القومية السورية كحل لمشكلة تناحرهم «فهؤلاء جميعا سيدعون في الاتجاه القومي المخرج التاريخي الذي ينقذهم من تحجرهم العرقي الديني المذهبي اللغوي والذي يوضح لهم حقيقتهم القومية». مع تقديرنا للظروف التي كانت تحيط بحاماتي عند تأليف كتابه والسرعة التي يود بها نشر افكاره وخصوصا وان الفترة التي كتب لها كانت تتميز بوجود الرفقاء في السجن، نود هنا تصحيح ما كتبه في القومية السورية وهو لا شك اعلم منا بها، فالقومية السورية ليست حلا او مخرجا ... بل واقعا وناتجا تاريخيا لتفاعل هذه السلالات مع بعضها البعض ومع البنية السورية الواحدة، والحل او المخرج هو وعي هذه القومية وتوضيح الهوية القومية من مهمة الحزب والا لانتمى دوره وتعطلت علة وجوده. وحاماتي يدرك ان الحل هو في الالتفاف حول الحزب «في الانتماء الجديد الذي يجب أن يقوم على وعي سليم لوحدة حياتنا ووحدة مصالحنا ووحدة مصيرنا في ارضنا الواحدة». وإذا ما سألنا حاماتي كيف هو فاعل لتحقيق هذا الانتماء الجديد فانه سيجيبنا في كتابه بإصدار سلسلة اوامر يبلغ عددها الستة يلخصها وهو ينفجر غضبا «لنقل اننا ما زلنا نحتاج الى فلسفة الوحدة ... لنقل اننا مفسخون شعبيا. لنقل هذا. لنع هذا». «فليفهم الجهلاء والاغبياء والمنافقون في القوميات المبتكرة». انه يبدو وكأنه يود حمل عصا غليظة يهاجم بها المواطنين لانهم لا يقولون ما يقول، ولأنهم لا يعون ما يعنيه، وبما انه عاجز عن فرض مبادئه بالقوة فلم يعد له من سبيل سوى تحقير مواطنيه وهو يرمقهم بنظرة استعلائية، فهم في نظره يكونون «شلعاء بشرية». ومهما قيل بان حاماتي يتكلم لضرورات المساجلات الصحفية اي غير تنظيرية ولكنه يؤشر بانه سيسير في خط سياسي معين عاجز عن الفعل فيهم وفي وضعيتهم. ولكن حاماتي يدفعه لان يدبر ظهره لهم فينعزل عنهم. ان قومية حاماتي

نقيضة القومية العنصرية ولكنه يصل معها الى نفس النتيجة. فالتفوق والانعزال عن القواعد الشعبية يحول الحزب الى طائفة اخرى تزيد من عدد الطوائف. وقد كان جورج عبد المسيح سباقا في ذلك فانه في شلل تام.

بعض التحديات في مواجهة الحزب السوري القومي الاجتماعي

قدم سعادة نظرية مبدئية في القومية تقود الحزب في عمله السياسي الذي يستهدف القضاء على الشروخ التي تجزئ المجتمع السوري افقيا ولكن ارادة الاجتماعية في التناقضات الشاقولية مبعثرة ولم ينس له تنظيرها وصبها في بنيان مترابط كما في القومية. ولكن ملازمة القومية للاجتماعية هي ملازمة الشكل للمضمون وإذا ما تم تجاهلها في العمل السياسي، تدفع الحزب في حال انفكاته الى العمل القومي دون الاجتماعي الى مزلق تغدو معها مهمة تكريس الوعي القومي عن طريق الحزب مهمة مستحيلة، ويبدو معها انشاء الحزب وكأنه حادث طارئ على مسيرة التاريخ وقد عبر انعام رعد عن ذلك بوضوح تام في كتابه «المنطلقات الفكرية والاستراتيجية الثورية». إن استكمال فكر سعادة القومي والاجتماعي هو شرط اساسي واولي للوصول بالقضية الى حيز الممكن». وعلى هذا نتساءل ماذا فعل تلامذة سعادة في هذا المجال؟ هذا السؤال لم يكن لي طرح لولا مبادرات رعد الفكرية المليئة بالآمال.

من الناحية القومية، يصير رعد «على بعث تراثنا القومي ... على وصلنا بجذورنا الحضارية. هذا النيش للهياكل العظمية المطمورة، ما المقصود من هذا كله؟ ... (القصود هو) الحافظ النفسي». أن نيش هذا التراث ما يزال مشتتا ونشك في أنه وصل الى مرماه: الحافظ النفسي وهو يحمل في طياته خطر «الغابرية والسلفية والتخبط في الماضي» والسبب في رأينا هو في تقاعس القوميين عن أعمالهم بعد سعادة. فقد كتب سنة ١٩٣٧ في مقدمة «نشوء الامم، ما يلي: «يتناول الكتاب الأول تعريف الامة وكيفية نشوئها ومحلها في سياق التطور الانساني وعلاقتها بمظاهر الاجتماع».

ويشتمل الكتاب الثاني على «نشوء الامة السورية ومحلها في سياق التطور وعلاقتها بالأمم الاخرى وبالالاتجاه العام». ثم أكد في المقدمة ذاتها «ان نشر هذا الكتاب (نشوء الامم) لا يسد الحاجة الى الكتاب الثاني: نشوء الامة السورية» اربعون سنة مضت و«نشوء الامة السورية» لم ير النور بل ليست هناك محاولات جديّة لدراسة هذا الموضوع البالغ الأهمية. ولا بد لنا من لفت الانظار الى ان الاستمرار في التحدث عن عظمة هنيبعل وزينون وصيدا وصور ... الخ هو عمليا من باب الترحم على هذه الهياكل وبالتالي تأكيد موتها ودفنها. لذا نرى ان نيش التراث لا بد من أن يصب في دراسة متكاملة لنشوء الامة السورية ومراحل تطورها وتبين شخصيتها عبر ادبها وفنها وفكرها. وتوضح نظرة القوميين للتاريخ في عملهم للمستقبل. لقد ظهر القوميون وكأنهم قدموا استقالتهم الفكرية في صدد البحث عن نشوء الامة السورية بعد سعادة وهذا أمر مؤسف للغاية. فاذا كان «نشوء الامم» يحوي النظرية القومية فهو وضع كمدخل لدراسة «نشوء الامة السورية». لقد قدم سعادة الاسس لا ليوقف أمامها تلامذته مبهورين بمتانتها بل ليشيدوا ببنائها عليها اشد وامتن. وفي هذا ضمانة كبرى لردع النظريات العشوائية في القوميات المريضة.

من الناحية الاجتماعية ونقصد هنا بالاجتماعية ما قصده سعادة في تصريحه الى مجلة «كل شيء» سنة 1947 حيث يقول ان لفظ «اجتماعي» قد أضافها الى اسم الحزب للدلالة على مذهب الحزب الاجتماعي المنصوص عليه في المبدأ الاصلاحى الرابع وهو مبدأ الغاء الاقطاع وتنظيم الاقتصاد القومي على اساس الانتاج ويقول في نهاية محاضراته المتعلقة بهذا الموضوع «بان قضية من هذا النوع ... تحتاج الى دراسة منظمة متسلسلة لا تجمعها محاضرة واحدة او كتاب واحد».

يقوم رعد بمجهود هائل في هذا المجال، فيبرهن ملازمة النضال القومي للنضال الاجتماعي في فكر سعادة، ويمنع بذلك اي تأويل يستثمر للردة على الثورية في منطلقات العقيدة القومية الاجتماعية، ويقبل على الوضعية الاجتماعية يستنبط منها امكانياتها فيشل الذين يحاولون النزوع بسعادة نحو اليمين ويدفع بالبعد الثوري الشعبي لدى سعادة نحو الأمام. بالنسبة له «صحيح ان الحزب يتوجه الى الشعب، الى الامة كوجود ثابت مستمر ولكن ثمة فئات وهي المستفيدة من الحالة السيئة الراهنة لا بد من محاربتها بعنف طالما تتمسك بالوضع السيء القائم. فسعادة لا يفصل في حربه بين الاقطاع والاقطاعيين وبين الرأسمالية والرأسماليين طالما هؤلاء يدافعون عن النظام القديم». فيرى أنه لا بد من التوجه الى المسحوقين نفسيا وماديا ويستشهد بسعادة الواضح في هذا المنحى وضدها كليا، فالفرز الثوري عنده لا يلتزم حدود الفرز الطبقي الضيقة ولكنه يأخذ في الاعتبار بنصوص عديدة منه نستطيع أن نتبين

مادة الثورة لدى سعادة الذي يقول: «نحن نهض من صميم الشعب من عماله وفلاحية الكادحين من أصحاب المهن الحرة ومن المثقفين واصحاب الاختصاص شاعرين بآلام الشعب مدركين قضية الوطن واعين حقيقته».

هذه الفئات هي المادة التي يستلمها رعد من سعادة للعمل على ان يكون الحزب وجدانها الاجتماعي كما هو وجدان الأمة القومي، اذ أن الحركة القومية الاجتماعية هي المؤهلة لمواءمة اصلية بين الفكر القومي والفكر الاجتماعي دون الانزلاق نحو الاكثيكية. من هنا فالتوجه نحو المسحوقين هي مهمة طبيعية للحزب، ولكن لا بد لنا من التذكير بان حركات عديدة توجهت الى هؤلاء في بلادنا وفي غيرها، تستحث عفويتهم بخلفيات مشبوهة عن دراية أو غير دراية فقادتهم الى الهلاك وسقطت هذه الحركات في حيز النسيان الا من كونها امثولة وجب تجنبها ومثلنا على ذلك البولانجية والبودادية في فرنسا الاولى في نهاية القرن الماضي والثانية في الخمسينات، وتجنب الوقوع في هذه المزالق ليس كما ظن البعض في انه على الحزب القومي الاجتماعي ان يقدم صورة شكل النظام الجديد الذي يبغى اقامته. ففي ذلك وضع المحراث قبل الثور. وهذا ما فعله ماركس ومن بعده لينين عندما رسما صورة جامدة للمجتمع المقبل حملت بذور الدوغماتية التي سرعان ما نمت فأسرت الذين اعتمدوا المنطلقات الماركسية للعمل الهادف لتحرير الانسان. وقد ترجم ذلك على ارض الواقع بأحكام الحرم التي تساقطت الواحدة بعد الاخرى على رؤوس جميع مفكري الماركسية - اللينينية حتى باتت قضية المثقفين في الاحزاب والدول الشيوعية قضية مستعصية وقائمة بذاتها ومعترف بها من الشيوعيين أنفسهم. ولكن العبقرية الماركسية تكمن في انها وضعت نظرية مبدئية ما تزال فاعلة في الاحداث الدولية منذ أكثر من قرن وحتى اشعار اخر. ومن ناحية أخرى لا يمكن الاكتفاء بالقول بان النظام الجديد سينبع من التراث والخصائص والأوضاع المستجدة فذلك أمر بديهي وليس بحاجة للتأكيد فمن غير الممكن اعتبار عبقرية عفلق بقوله مثلا ان الاشتراكية ستكون بالضرورة عربية فهذا من قبيل خلع الأبواب المفتوحة.

ان التوجه نحو المادة الاجتماعية التي استلمها رعد من سعادة وهي التي تتكون من العمال والفلاحين واصحاب المهن والمثقفين واصحاب الاختصاص يستوجب التقدم منها بنظرية اجتماعية مبدئية كما تقدم سعادة من الأمة بنظرية القومية ومنطلقات اجتماعية واضحة. لقد قادت البولانجية والبودادية مادتها الى الخنق لأنها لم تكن تملك النظرية المبدئية في عملها السياسي، وسعادة يعترف بان «كثيرا من آرائه ونظرياته مبعثرة في رسائل خصوصية».

هنا تبرز قيمة رعد الفكرية الذي يحاول بنجاح استكمال التنظير القومي الاجتماعي ولنا في دراسته القيمة جدا «القومية الاجتماعية الثورة الرائدة» التي يتجه اليها العصر بتجارب اممه مثل حي على ذلك. فهو هنا مبارز فكري لا يشق له غبار يتصدى بشكل مدهش حقا للذين يعرقلون مسيرته عن يمينه وعن يساره. فينال من خصومه الواحد بعد الآخر.

وهو في هذه الدراسة يستقطب الاهتمام الشديد عندما ينطلق من القومية الاجتماعية فينتقد الماركسية لا لينتكس عنها الى زاوية او موقع الفرد والفرديانية، ولا الى موقع أو زاوية الطبقة المستغلة، ولا الى موقع او زاوية الضبابية الروحية فكل هذه يرفضها رفضا قاطعا، بل ليعدنا بتجاوزها كما تجاوز غيرها. ويعي اهمية التنظير الملحة عندما يقول: «وإذا كان المنحرفون يسارا المتمركسون قد تذر عوا بغياب الدراسات الاختصاصية ليعمها عن المنطلقات الواضحة والقواعد الأصلية والنظرة الشمولية الرائدة، فان المنحرفين يمينا حاولوا هم أيضا التذرع بغياب هذه التفاصيل والدراسات ليطمسوا المنطلقات الواضحة والقواعد الأصلية والنظرة الشمولية الرائدة التي تميزت بها القومية الاجتماعية».

الخلاصة

من المهمات التي على القوميين الاضطلاع بها هو أن يشكل الحزب الوجدان القومي والاجتماعي، وإحدى الشروط الرئيسية لتموضعه يكمن في المجهود الفكري والتنظيري في اتجاهين متوازيين وهذا أمر ملح: اولا القيام بدراسة نشوء الأمة السورية وتطور شخصيتها القومية، وثانيا التنظير الاجتماعي لتسليم المادة الاجتماعية التي حددها سعادة بوضوح.

المصدر:

(1) انعام رعد، المنطلقات الفكرية والاستراتيجية الثورية.

(2) أنطون سعادة، الاسلام في رسالتيه.

(3) جوزيف شادر، مدخل الى الاشتراكية والشيوعية والليبرالية والنظام الاقتصادي الأصلح للبنان. 1966.

(4) ميشيل علق، في سبيل البعث.